الشيخ حسين والي

للشيخ محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين

تفضل المقتطف الأغر وطلب مني ترجمة قصيرة للمغفور له الأستاذ الشيخ حسين والي. والمقتطف حين يفسح مجالاً لمثل هذه الترجمات يضيف فضلاً الى أفضال يعرفها له صفوة الناطقين بالضاد في شرق العالم وغربه. وها هو ذا اليوم يرى من الخير الكثير أن يعمل، بقدر ما تسمح له أزمة الورق القاسية، على تحقيق ما تمناه الكثيرون من ترجمة أعلام الأزهر ليكون من مجموع هذه التراجم تاريخاً للازهر ولمصر في ناحية من نواحيها في عصور طويلة مختلفة (١)

﴿ نشأته ﴾ الشيخ حسين والي فرع من شجرة طيبة ! فهو ابن المرحوم الشيخ حسين والي بن ابراهيم والي بن اسماعيل والي بن وهدان والي الذي ينتسب الى السلطان عامر بن مروان الحسيني ابن السلطان موسى الكاظم الحسيني الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي كرّم الله وجهه. ووالده كان من أعيان علماء عصره، إذ كان مدرساً في الازهر والمدرسة التجهيزية، واليه الاشراف على طلاب المدارس وامتحاناتهم في اللغة والدين، كما كان أستاذ المغفور له الخديو توفيق، ومن الشعراء المعدودين.

ولد رحمه الله عام ١٨٦٨ م ببلدة «منية أبي علي» من أعمال مركز الزقازيق بإقليم الشرقية، ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان حافظاً للقرآن، ثم انتقل للقاهرة وانتسب للأزهر وأقام مع الشيخ الوالد في قصر عمه المرحوم بهجت باشا ناظر المعارف والأشغال في عهده (٢). وفي الأزهر أخذ العلوم العقلية والنقلية عن أبيه ومشهوري الشيوخ المعروفين: البشري والأشموني والنشوي والبرديني وغيرهم، وجاز امتحان العالمية عام ١٩٠٠ م بعد وفاة الوالد بعدة سنين بين يدي لجنة كان من أعضائها الشيخان محمد عبده ومحمد النجدي شيخ مذهب الشافعي حينذاك. ومن ذلك الحين أخذ نبوغه يتجلى في مظاهر مختلفة أكثي

(١) انتفعت في هذا البحث كثيراً بكلمة قيمة كتبها لهذا الشأن فضيلة الأخ الوفي الأستاذ الشيخ راجح الشرقاوي الذي عرف فضل الشيخ فبحث له ما لا يعرفه دونه قريبه

(٢) تسمى مدرسة محمد علي الابتدائية وقصر السيدة زينب يشغل مكان هذا القصر حينذاك

بالكلام عن ناحيتين اثنتين ، هما : التأليف والشعر ، والمناصب التي وليها في الازهر والاعمال العامة التي اضطلع بها أو شارك فيها

﴿ صلة في التأليف ﴾ لم يعرف الشيخ نظام الجزازات الذي سهّل على علماء الغرب متاعب البحث والتأليف ، ولكنه استعاض منه بكناشات يكتب فيها ثمرات اطلاعه وبحثه في المواد المختلفة ، عازياً ما ينقله بدقة الى أصوله حتى يكون منه على حبل الذراع حين الحاجة ، ومن ثمَّ كان ما يبهر به القراء من الردود العاجلة المفحمة في المسائل التي يشجر فيها الخلاف ويمتد الى الصحف . وأذكر اني ما زرته يوماً إلاَّ ورأيته مكبّاً — في الاوقات التي يركن فيها غيره للراحة — على بعض ما زخرت به مكتبته الحافلة يقرأ ويقيد ، أو عاكفاً على كتابة بحث يستشير فيه شتى المراجع حتى انه عند ما عُنينا بُعيد وفاته بترتيب حجرته وجدنا على سريره وحواليه نحواً من ثلاثمائة مجلد من عيون المراجع العلمية كان يجعلها دائماً بين يديه

وقد أعانه عقله القوي وصبره على البحث والمراجعة على الكتابة في كثير من العلوم ، حتى ترك في بعضها مؤلفات نفيسة ، طبع منها النزر وبقي أهمها . كتب في فقه الشافعية كراسات تزيد على الستين كلها تعليقات على مراجع المذهب الاصيلة ، وألَّف في علم الحيوان كتاباً لطيفاً يناهز الثلاثمائة صفحة ، وفي علم الكلام وتاريخه ، وعلم أدب البحث والمناظرة وتاريخه ، كما كتب في آداب اللغة وتاريخها ثلاثة مجلدات ضخام ، وفي « اللغة » كتاباً كبيراً ينيف على السمائة صفحة . تناول فيه : اللغة وعوامل نشأتها وتطورها واختلافها ، وأسباب علو اللغة العربية وتعدد لهجاتها ، وما دخلها من ألفاظ غريبة عنها مبيناً أصل هذه الالفاظ ، وفي رأيي ان هذا الكتاب من خير ما كتب وحريٌّ بالازهر أن يعمل على نشره . وله في غير هذه العلوم تآليف أخرى لا سبيل الآن لاستقصائها

إلاَّ انه مما يجدر ملاحظته ان هذه المؤلفات كلها ، ما عدا كتاب آداب اللغة وتاريخها ، يرجع تاريخ كتابتها الى ما قبل ولاية ما ولي من مناصب وأعمال كبيرة في الازهر وغير الازهر . ومعنى هذا — فيما أرى — ان من الخير أن يخصص جماعة من العلماء المبرزين للتأليف على أن تضمن لهم الدولة الحياة الطيبة الراضية . واذكر اني ذهبت يوماً لرؤية الشيخ رضوان الله عليه فسألني — كما تعوَّد — عما في الدنيا ، فقلت له : لا شيء إلاَّ حديث الناس اليوم عن محاضرة للشيخ عبد العزيز شاويش خاصة بما سماه « جغرافية القرآن » وعما دعا اليه من تأليف جماعة من كفاة العلماء تنتدب نفسها لوصف ما في القرآن من أماكن وبلدان وترجمة ما يرد فيه من أعلام . فقال : « الأمر جليل ، ولكن يكفي فيه أن يفرغ له عالم ثبت يكفى أمر الدنيا » وجعل يملي عليّ فوراً — كما اقترحت عليه ما يتصل بآدم عليه السلام ومهبطه . . . !

ولعلَّ مما تميز به الشيخ بين نظرائه من جلة العلماء عنايته في تآليفه بالنواحي التي كان

يُظن أنها غريبة عن الازهريين ولا يمكن أن يكون لهم التوّق فيها ، ومن هذه النواحي اللغة وتاريخ آدابها ، وتاريخ العلوم. وإني اعتقد أنهُ أدرك تماماً ما في البحث في تلك النواحي من خير كثير لخصها بكثير من جهده ، وهل خير من أن نعرف من تاريخ علم الكلام الدخيلَ في العقائد الدينية فلا نحرص عليه وتتعصب له بالباطل ، فيكون سبباً من أسباب الفرقة بين المسلمين ! وإذا كنت لا استطيع — قصداً في الورق والقول — أن أتناول بالبحث والتحليل جانباً من مؤلفاته فإني أود أن أشير الى ما كان منه في « كتاب التوحيد » المطبوع عام ١٩٠٩ ، من شجاعة في قول الحق ، ورحابة صدر جعلتهُ يرى رحمة الله تتسع لمن تبلغهُ دعوة الرسول على وجهها الحق ، ويكفي أن تسمعهُ يقول :

« فلا تنكر على معتزلي أو غيره كلامه حتى تتدبره ، فليس كلام المعتزل او غيره خطأ ، وإنما الخطأ » بعضه [1] وإلى قوله في نشأة علم الكلام للرد على الزنادقة وأمثالهم الذين انتهى أمرهم ، وفي كتبه التي لاجدوى الآن من دراسة الكثير منها : « أما تلك الكتب فإن فيها حجباً كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتقاد صحيح ثابت ....

أمن الحزم أن يضيع الانسان عمره في الاشتغال بخصوم موهومة ، وربما كانوا ناجين لانهم غير كافرين ! أمن الحزم ان يبحث الانسان في الجوهر والعرض ، ولا يبحث في الكتاب والسنة ليستفيد علماً خيراً من هذا نافعاً في كل وقت .. ان الجوهر والعرض أصبحا في نسيان بجانب الكهرباء وغيرها مما عرف اليوم ، فهل أخذوا — يقصد جمهرة الازهريين — في معرفة ذلك حتى يفيدهم في الكلام ما أفادهم ذاك ؟ حاش لله ان يأخذوا »[2] وأخيراً ، لنسمع اليه يقول في معذرة من لم يبلغ اليه الاسلام مبيناً بياناً كاملاً : وهذا يقتضي أن كثيراً من الافرنجة الذين هم باوربا وغيرها يعذرون ، لان الدعوة لم تبلغهم على وجهها : فان الرعاة والرعية من المسلمين استكانوا لامورهم الخاصة ، حتى عضهم الزمان بنابه ، فجهلوا أمورهم العامة وجهلوا لسان الكتاب (القرآن) ، ولو انهم علموه لكان تقصيرهم في معرفة اللسان الاعجمي حجاباً بينهم وبين ذلك الأمر الجلل ، كما هو حجاب بينهم وبين العلم والصناعة في هذا الزمان ؛ وان أناساً من أهل اوربا وغيرها فيهم ذكاء شديد وعندهم علمٌ صحيح وميلٌ الى المعرفة ، فأخذوا يبحثون بأنفسهم ويعملون النظر حتى وصلوا الى الايمان بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم ، ودخلوا في دين الاسلام عن رأي سديد ونظر ثاقب ، ومهدوا للاسلام سُبلاً لم يمهدها أهله ، واولئك خير من كثير من المسلمين ، ولولا أن الاسلام دين الفطرة لما اهتدوا إليه . وإني أراهم يقوّمون قومهم يدلو بعضهم بعضاً في أزمان ثم تأخذ عنهم ، وان ديناً يقوم بنفسه لا بأهله لدين صحيح »

(١) ص ٧٦ (٢) : ٧٨ — ٧٩

﴿ شعره ﴾ لقد عرف — فيما عرف به — بالامامة في فقه الشافعية وفي اللغة وآدابها وعلومها ؛ وعرف مع هذا كله بالشعر الجزل الشديد الأسر المتين النسج ، وبخاصة بالشعر التاريخي الذي يبين الشطر الاول منهُ عن التاريخ الهجري والشطر الثاني عن التاريخ الميلادي. وقد تفنن في هذا الضرب من الشعر تفنناً لايجارى فيه ، وترك منهُ طائفة كبيرة تكفي لتخليد ذكره ، لولا بيئة الأزهر الخاصة التي جعلته لا يجهر به

من هذا اللون من الشعر قصيدة سماها : « شوارد عكاظ » ، قالها في مدح الشيخ محمد عبده ، وبدأها بالفخر بنفسه وعلمه وهي طويلة في خمسين بيتاً ، يؤرخ المصراع الاول من كل منها عام ١٨٩٨م ؛ والمصراع الآخر عام ١٣١٦هـ ، كما ان عنوانها يؤرخ عام انشائها بالتاريخ الميلادي

ونظن أن من الحق أن نقرر — كما أشرنا — ان الشيخ برع في هذا النوع من الشعر براعة لايلحق فيها ! وحسبنا أن نشير الى أن له كتاباً لا يزال مخطوطاً سماه : « عصا موسى » في قريض العرب والمولدين ، ذكر فيه قصيدة له دعاها « مليك شعر الدهر » وهذه التسمية بحساب الجمّل تؤرخ عام انشائها وهو ١٣١٠ هـ . إنها كما يقول : « مائة تاريخ في ستين بيتاً ، كل ثلاثة أبيات خمسة تواريخ تكتب في الأصل خطاً واحداً فتكون القصيدة عشرين خطاً ، وحينئذٍ تقرأ على أوجه متعددة . ولو قرئت على أصل كتابتها فقط كانت مسدسة ، وكان المصراع الاول منها وما تحته من كل تسديس عشرين تاريخاً لعام ١٣١٠ هـ ، والمصراع الثاني وماتحته كذلك عشرين تاريخاً لعام ١٨٩٢ م ، والمصراع الثالث وماتحته كذلك عشرين تاريخاً لسنة ١٠٩٦ قبطية ، والمصاريع الثلاثة المذكورة مصرّعة الى انتهائها والمصراع الرابع وما تحته كذلك عشرين تاريخاً لسنة ٢٢٠٤ رومية ، لازمة فيه قافية النون ، كل مصراع مما ذكر تاريخ ، والمصراعان الخامس والسادس وما تحتهما كذلك عشرين تاريخاً لسنة ٥٦٥٣ عبرانية ، كل مصراعين تاريخ واحد ، لازمة في الخامس قافية الدال الموصولة بالهاء وفي السادس قافية اللام » . فهل نجد أعجب من هذا وأدل على القدرة والبراعة !

﴿ الشيخ والأزهر ﴾ كما نرى هذه الروح القوية في تآليف الشيخ وشعره ، نرى شخصيته العظيمة متجلية في كل ما اتصل به من الاعمال الكبيرة في الأزهر وغير الأزهر

عين مدرساً عام ١٩٠٠ م . فعكف على تحصيص ما نيط به تدريسه وعلى الكتابة عليه فكان من ذلك مؤلفاته . وعين وكيلاً لمشيخة معهد طنطا عام ١٩١٤ م فجذبت شخصيته حوله أعيان المدينة ، فهرعوا اليه يلتمسون من علمه وتجديده . وهاله ما رآه من أخطاء الطلاب اللغوية فعمد — كما يعمل العليم بالنفس — الى لوحة يكتب عليها كل يوم كلمة خطأ من الاخطاء الشائعة وصوابها ، ويقرأ الطلاب هذه الكلمات فلا ينسونها ؛ ولا تزال ذكرى هذا

الصنيع عالقة بأذهان من تخرّج في هذا المعهد من إخواننا المدرسين . وقبل هذا عين سنة ١٩١١ م مفتشاً عامّاً للازهر والمعاهد الدينيـة فعمّ إرشاده وإصلاحهُ ، وتراءى الى الخديو عباس — وكان يثق به ويقدره — صرخة عالية من شكاية طلاب شهادة العالمية ، فندبهُ للرآسة العامة لهذا الامتحان عام ١٩١٢ و١٩١٣ م في مشيخة المغفور لهُ الشيخ سليم البشري ، فحقق الثقة وصينت كرامة الازهر وسمعة الامتحان . وكان من هذا ان زادت ثقة القصر به حتى رشح لمشيخة الأزهر ، وصارحهُ بذلك المرحوم حسين عاصم باشا ، وهو لا يتجاوز ٣٧ ربيعاً . ومما يجب ان يذكر له دائماً بالخير أنهُ في وزارة يحيي باشا ابرهيم تقرر وضع الازهر تحت تفتيش وزارة المعارف مقابل ما تعطيه وزارة المالية له من مال ، فوقف الفقيد في هذا السبيل واعتزم الاستقالة اذا لم يلغ هذا القرار ، وكان ان عدلت الحكومة عنهُ احتراماً لكرامة الأزهر واستقلاله[1]

وتوالت أحداث وتغير الامر ، وتولى ملك مصر المغفور له الملك فؤاد الأول ، فقرّب اليه الفقيد الذي صارت مقاليد الامور في الازهر بين يديه حين صار سكرتيراً عامّاً للازهر والمعاهد الدينية عام ١٩٢٠ م ولم يبق لشيخه المرحوم الشيخ ابو الفضل الجيزاوي الا لقب المشيخة ، ونال في عهد جلالته عضوية هيئة كبار العلماء سنة ١٩٢٤م وعضوية مجلس الشيوخ وعضوية المجمع اللغوي . وهو في كل هذه المناصب مبرز ممتاز متمتع بحب الازهريين واعجابهم وتقدير رجالات الأمة ، فأخلص للامام الاكبر الشيخ المراغي الذي كان الفقيد رحمة الله عليه يرى فيه أخاً ومصلحاً عظيماً ، كما كان الاستاذ الاكبر يعرف له كفايته واخلاصهُ حتى قال عنهُ في تأثر عميق انهُ لا يجد بعد الشيخ من يسد فراغهُ لا في داخل الازهر ولا خارجه »

﴿ الشيخ في غير الازهر ﴾ كان رحمهُ الله من الصفوة التي اختيرت لعضوية مجلس الشيوخ في اول وجوده ، وفيه برز عوائقه المشهودة في كبريات المسائل ، مثل : مسألة حفظ القرآن بالمدارس الالزامية ، والاحتفال بما سموه عيداً للمحاكم الاهلية ، والتبشير ، وغير ذلك مما أحصتهُ المضابط وأذاعتهُ الصحف وتحدث به الناس في الاندية العلمية والسياسية

أما أعماله وآثاره في المجمع اللغوي فتشهد بما لها من منزلة وقيمة عزيزة المنال عالة المجمع وحاضر جلساته كما يقر حضرات أعضائه من العلماء الشرقيين والمستشرقين بأن آراءه كانت الحاسمة اذا اشتدّ الخلاف ، وفي هذا يذكر الدكتور منصور فهمي بك عضو المجمع من كلمة طيبة قيمة بالجزء الرابع من المجلة : « لقد كان غفر الله له فيصل هذه المناقشات ، يقول — حين يدور الجدل في الاصلاح او القاعدة — القول اليقين الذي يقطع الشك ويقف المناقشة حتى ما يحسن السكوت عليه ، وكان اطلاعهُ على دقائق اللغة العربية وأسرارها ، هو وحده الذي كان يمكنه في الوقف ، ويضع قوله موضع الحجة الدامغة والبرهان الساطع » .

(١) ذكر هذا الدكتور [illegible] مجلة المجمع [illegible]

﴿الشيخ ومؤتمر الخلافة﴾ في عام ١٩٢٤ م ، وفي وزارة المغفور له سعد زغلول باشا بعد الغاء الخلافة من تركيا ، اتفقت وجهات النظر الرسمية والاهلية على الدعوة لمؤتمر اسلامي عالمي لانتخاب خليفة يجمع ما تفرّق من كلمة المسلمين ، ونشطت الدعوة لهذا المؤتمر الذي كان الشيخ قطبهُ ومحوره وروحه والحركة الدائمة له. لكن وجهة النظر تغيرت عام ١٩٢٦ لعوامل كثيرة خارجية وداخلية ، وكثر الخذلان ، وشقّ على الشيخ ان يجيب بعض السلطات فيترك المؤتمر في وسط الطريق ، كما شقَّ عليه ما أقيم من العقبات في وجه وفود البلاد الاسلامية التي قررت الحضور لمصر — اجابةً لرسالة الشيخ واحتراماً لما كان بينهم وبينهُ من روابط اسلامية قديمة — حتى ان زعيم الريف الامير عبد الكريم ومسلمي الارجنتين وكّلوه ليكون مندوباً عنهم بالمؤتمر لما لم يجدوا سبيلاً لارسال من يمثلهم منهم

وفي جلسة خاصة مع المرحوم توفيق نسيم باشا رئيس الديوان الملكي حينذاك — لم يحضرها إلاَّ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد فراج المناوي — قال له نسيم باشا : « اذا نجح المؤتمر فلك وان فشل فعليك » ، فعلم الشيخ حينئذ انهُ يراد أن تُطوى صحيفة المؤتمر بلباقة ، فاتجه بكل ما لديه من حول وقوة حتى أخذ قراراً مشرّفاً لمصر والأزهر ، بارجاء انعقاد المؤتمر الى حين . وقد استند فيه الى أن الشعوب الاسلامية لم يتمثل منها إلاَّ ١٣ دولة وان الواجب يقضي بهذا الارجاء حتى يتيسر تمثيل البلاد الاسلامية في المؤتمر تمثيلاً كاملاً ، والى ان مصر أحق البلاد الاسلامية بعقد المؤتمر فيها مرة أخرى نظراً لمركزها الجغرافي الممتاز وزعامتها الدينية بفضل الأزهر الكعبة العلمية للمسلمين جميعاً

وهكذا طويت صحيفة المؤتمر في ذلك الحين ، واستطاع الشيخ أن يحتفظ لمصر والأزهر بالرفعة والكرامة ، ودلَّ بما بذل فيه من جهد على انه كان حريًّا بالركون اليه . وقد عرف له كل هذا المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول ، فلما تشرف سماحة مفتي الموصل حينذاك — أحد مندوبي وفد العراق — بمقابلة جلالته أظهر له عطفه السامي على الشيخ وتقديره لخدماته

وبعد ، فهذه كلمة قصيرة عن بعض جوانب حياة الشيخ حسين والي — الذي لم يترك لاولاده من المال غير ما ورثه هو عن والده المغفور له على كثرة ما كسب وضخامة مرتباته — نعرف منها كيف كان في نفسه وفي حياته الخاصة وحياته العامة ، وفيها كما أعتقد ما يحفزنا الى التمثل به في بعض ما نبغ فيه وتفرّد به فان من عوامل النهوض قراءة تراجم العظماء والافادة منها. من أجل هذا أرفع الصوت عالياً بما ادعو اليه منذ طويل : بان يتوفر جانب منا معشر الازهريين على تاريخ رجالات الازهر في عصوره المختلفة ، بادئين بأعلام هذا العصر الذي نعيش فيه ، حتى نفيد من الاحياء في ترجمة تراجمهم وتراجم الذين سبقوا الى الدار الأخرى ان هذا تاريخ الازهر وتاريخ مصر ونهضتها العلمية فيها مدة تاريخية تزيد على الالف عام . وان الهادي بما فيه نظير